المفارقة الدينية والاخلاقية في أدب العيارين والشطار
العصر العباسي إنموذجا

م.د إسراء طارق كامل
كلية الآداب – قسم اللغة العربية

الملخص :

إن لتراثنا الادبي العربي جاذبية وهوسا لا ينفك يغري الدارسين والباحثين قديما وحديثا عن البحث في مكامنه وعوالمه الخفية التي تنطوي في جزء غير قليل منها على مفارقات ومتضادات اكتنفت هذا التراث بمختلف صنوفه الأدبية التي انضوت تحت مضماري الشعر والنثر. ولعلنا لا نخطئ الصواب إذا قلنا ان انشغال معظم الدراسات الأدبية والنقدية ولاسيما القديمة منها بالبحث والاستقراء للنتاجات الأدبية المركزية او الرسمية ـ إن جاز لنا التعبير ـ مثل تلك التي تستقصي الظواهر الأدبية والنقدية عند هذا الشاعر، أو ذاك، أو تلك الطائفة من الشعراء وسوى ذلك من الموضوعات التقليدية التي شغلت هؤلاء الدارسين عن البحث في الكثير من التيارات الادبية والفكرية التي لا يكتمل تراثنا العربي بدون البحث في مكامنها، بل ومحاولة اقصائها في بعض الاحيان على الرغم مما اشتملت عليه من مكنونات ابداعية اسهمت في اغناء تراثنا الأدبي والنقدي في مختلف عصوره . وكانت ظاهرة انتشار **العيارين والشطار** بوصفهم فئة خارجة عن القانون وعن سلطة الدولة من ابرز الظواهر التي شغلت مجتمعاتنا العربية القديمة، ولاسيما مجتمع العصر العباسي الذي سبب اهمال السلطة لفئاته المعدمة والفقيرة في سلوكهم طريق العيارة والشطارة، سبيلا للتحقيق العدالة الاجتماعية التي اقرها التشريع الالهي والوضعي في آن. وقد رافق هذا النشاط السياسي لهذه الفئة الاجتماعية نشاط ادبي واسع ومتنوع انطوى في مكنوناته على العديد من المفارقات والمتضادات ومنها **المفارقة الدينية والاخلاقية** التي نلمح وجودها في سيرهم وحكاياتهم البطولية والملحمية الشعبية، فضلا عن اشعارهم التي كشفت في كثير منها عن الجانب الوجداني لهذه الفئة ولاسيما المتصل منه بالتوجه الديني والاخلاقي الذي مالبثوا يدافعون عن وجوده بل ورسوخه في سلوكياتهم وإن كانت تسير في اطار السلب والاغارة على فئة الأغنياء والميسورين واصحاب النفوذ تحديدا ، كونهم احد ابرز عوامل تهميشهم واقصائهم. وعلى الرغم من أن الغاية لا تبرر الوسيلة إلا ان الواقع الأدبي لفئة العيارين والشطار يشير بشكل واضح الى دور اجتماعي وديني لا يستهان به أداه ابطال انتموا الى سير وحكايات هذا التيار الشعبي، اثروا في المجتمع تأثيرا ايجابيا من خلال رسوخ الوازع الديني والاخلاقي في نفوسهم، وإن كان في سلوكهم السلبي ما يثير في ذهن القارئ مفارقة

عن كيفية الجمع بين هذين النقيضين: الاعتقاد بالدين والاخلاق من جهة والسلوك الذي ينفي هذا الاعتقاد من جهة اخرى .وهو ما حاولنا الايغال في كوامنه وصولا الى ما يثبت او ينفي هذا النوع من المفارقة في ادب العيارين والشطار .

المدخل :

فإن المتأمل في تاريخ ادبنا العربي، ولاسيما القديم منه يجده ثرا بالعديد من الظواهر الأدبية والفنية التي اكتنفت نتاجات الأدباء والكتاب والشعراء ولاسيما في الحقبة العباسية التي شهدت ظهور العديد من الحركات الأدبية، والتي كانت صدى لطبيعة الحياة الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والاقتصادية لمجتمع ذلك العصر، ولاسيما تلك المراحل التي شهدت احداثا غيرت مجرى هذا الواقع بمختلف جوانبه والذي بدا مسايرا لتوالي الأحداث السياسية وتباينها، فكان الأدب بشقيه الشعري والنثري، الوثيقة والسجل الذي صور لنا تلك الاحداث التي شكلت نواة التغيير بمختلف جوانبه وانعكاساته السلبية والايجابية في آن.

كان العصر العباسي الممتد ما بين سني(١٣٢هـ ـ ٤٤٧هـ) من ابرز العصور التي شهدت مسارات فكرية مختلفة هيمنت على النظام السياسي، ومن ثم الاجتماعي لتلك المرحلة التي سعى من خلالها الخلفاء العباسيون الى اتباع مختلف الوسائل التي تضمن لهم البقاء على رأس السلطة، الأمر الذي نجم عنه صراعات مختلفة طالت البيت العباسي نفسه، مما انعكس بشكل واضح على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية، فكان من نتاج ذلك الاضطراب بروز العديد من الظواهر التي شكلت في جانب من جوانبها عبئا على المجتمع، وآفة تمزق محاسنه ولعل ظاهرة انتشار العيارين والشطار، كانت من ابرز افرازات العوز والفقر الذي خلفه انشغال السلطة آنذاك بنفسها غير ملتفتة الى حال هذه الفئة من فئات المجتمع والتي كان ضيق ذات اليد من ابرز واهم البواعث التي دفعتها الى الخروج على الانظمة والقوانين التي اغفلت حقها، فكان رد فعلها عكسيا اذا اخذنا في الحسبان أن لكل فعل رد فعل يوافقه في القوة ويعاكسه في الاتجاه . ولعلنا لا نجافي الصواب اذا قلنا: ان تلك الفئة من فئات المجتمع العباسي آنذاك كانت ترى في خروجها على السلطة واستباحة اموال الأغنياء من الأعيان والتجار الذين بخسوهم حقهم في تلك الأموال ـ وهو حق اقره الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة. أمرا لا يخالف العرف والقانون، لأن خروجهم إنما كان من اجل استرداد تلك الحقوق التي منعها عنهم تعنت السلطة وغياب الوازع الديني والاخلاقي لدى معظم الميسورين آنذاك تجاه تلك الفئة.

المبحث الاول:

اولا: تعريف اجرائي: العيارون والشطار في التراث اللغوي والاصطلاحي

العيار في اللغة: اسم معناه الكثير التجول والطواف، الذي يتردد بلا عمل، يخلي نفسه

وهواها والمِعار بالكسر الفرس، الذي يحيد عن الطريق براكبه. والعيار الشخص كثير المجيء والذهاب في الارض، والعيار من الرجال الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها، وهو الذكي كثير التطواف يقال: عار الفرس يعير: ذهب كأنه منفلت، يهيم على وجهه لا يثنيه شيء، فهو عائر اي متردد جوال [١]. اما الشاطر فهو: اسم مفرد جمعه شطار وهو من اعيا اهله خبثا، يقال شطر عن اهله بمعنى نزح عنهم، وترك موافقتهم واعياهم خبثا ولؤما قال ابو إسحق: "قول الناس فلان شاطِرٌ معناه: أَنه أَخَذَ في نَحْوٍ غير الاستواء، ولذلك قيل له: شاطر، لأَنه تباعد عن الاستواء"[٢]. والشاطر الذي عصا اباه أو لى أمره وعاش في الخلاعة، وشطر فلان شطارة: اتصف بالدهاء والخباثة، والحيلة والذكاء، واللص الشاطر الذكي الذي يستعمل الحيلة في موضع الحيلة والقوة في موضع القوة [٣] .

واذا ما حاولنا تتبع جذور هذه الظاهرة الاجتماعية نجد انها تمتد بتلك الجذور الى فئة "الصعاليك" الذين شكلوا ظاهرة اجتماعية وادبية في العصر الجاهلي، وهم فئة تقترب بشكل كبير في توجهاتها الفكرية والايدلوجية من فئة "العيارين والشطار" في العصر العباسي، إذا ما اخذنا في الحسبان أن البواعث التي افرزت مثل هذه الفئة الاجتماعية هي ذاتها التي افرزت فئة الصعاليك التي لم تر بدا من الثورة على الظلم الذي عانته ازاء اهمال السلطة لحقوقها، فقررت اقامة صولات على كل من اوتي سعة من العيش ولم يؤد واجبه ازاء الفقراء والمعوزين سواء أكان من افراد السلطة ام من اغنياء المجتمع من الأعيان والتجار واصحاب النفوذ، فكانت تلك الصولات والغارات وسيلة لغاية، مفادها إقامة العدالة الاجتماعية بين افراد المجتمع الواحد، عن طريق سلب هذه الأموال كلها أو بعضها، من اجل ردها الى الفقراء والمحتاجين الذين افحمهم العوز والجوع غير آبهين بالمصير الذي سينالهم إذا ما وقعوا بيد السلطة، أو المتضررين من هذه الغارات، كونهم فئة خارجة عن القانون وعابثة بالأمن المجتمعي ونظامه، ذلك أن نبل الغاية لديهم يبرر الوسيلة . وتعد حكايات واشعار العيارين والشطار من ابرز الأنواع الأدبية الشائعة في الآداب العالمية والعربية على حد سواء، وهي نمط ادبي احتفى به تراثنا العربي منذ أمد بعيد، فقد افرد له الجاحظ رائد الفلكلوريين العرب ـ وغير الجاحظ كثير ـ كتبا قائمة بذاتها تناولت بالعرض والتحليل حكايات تلك الفئة من فئات المجتمع واصنافها وطرائفها وحيلها واساليبها، فضلا عن آدبها الاجتماعية والمهنية وهم في كل ذلك نسيج وحده اسهم في رفد تراثا الأدبي بصنوف متنوعة من الأشعار الحكايات، والنوادر والأخبار والأقوال المأثورة[٤].

ولعل هذا الغنى الفكري والفني الذي تضمنه ادب هذه الفئة من فئات المجتمع العباسي كان الباعث الذي اغرى الباحثين قديما وحديثا نحو الكشف عن مكامنه الابداعية في دراسات ادبية ونقدية متنوعة الاتجاهات والمناهج.

ثانيا: بواعث ظهور العيارين والشطار في العصر العباسي

إن المتأمل في تاريخ الحقبة العباسية يلمح وبشكل لا يدانيه الشك نهضة حضارية واسعة شملت نواح مختلفة من العلوم، والمعارف، والآداب، نتيجة الانفتاح الحضاري على الشعوب والبلدان الأخرى ولاسيما بلاد فارس والروم، واليونان وكانت تلك النهضة احد ابرز انعكاسات التوسع في حركة الترجمة والتأليف التي سايرت هذا الانفتاح الحضاري نقول: على الرغم من كل تلك الاشراقات في الحياة العباسية آنذاك إلا اننا لا يمكن أن نتجاهل الظواهر السلبية التي القت بظلالها على طبيعة الحياة آنذاك ومنها ظاهر العيارة والشطارة التي كانت صدى لتركز الثروة بايدي فئة معينة من فئات المجتمع مثل: الخلفاء والعمال والولاة واصحاب النفوذ من التجار والاعيان الذين تشاغلوا عن حقوق الطبقات المعدمة والمهمشة التي ساد امرها وانتشر بفعل الصراعات السياسية التي شغلت ارباب السلطة عن تأمين هذه الحقوق، فحيثما وجدت قوما يموتون من التخمة، وجدت آخرين يموتون من الجوع، ولذلك لا تكاد تخلو امة من ظاهرة التسول والكدية، او العيارة، او الشطارة، او الصعلكة، او الفتوة، وكلها ظواهر اجتماعية وليدة الاجحاف في التوزيع والانفاق(٥).

واذا ما حاولنا ايجاز الاسباب التي ادت بالمجتمع العباسي الى مثل هذه الظواهر السلبية، فيمكن أن نوجز القول في ذلك بما يأتي:

١ـ تهميش معظم القائمين على الحكم آنذاك للذات العربية، وتراجعها على حساب الآخر المختلف عرقيا وثقافيا، وفكريا ونعني بذلك النفوذ الفارسي ومن بعده التركي الذي امتد الى الذات العربية بشكل جلي منذ بداية الحكم العباسي، حيث كانت الدولة العباسية تدين بظهورها ووجودها للآخر الفارسي فالمنصور: "اول من استعمل مواليه وقدمهم على العرب"(٦).فاتخذ الخلفاء من بعده ذلك سنة حتى ان بعضهم جعل من مواليه رجالا يتصرفون في شؤون الدولة منهم البرامكة، وآل سهل، وآل طاهر(٧). وهو ما اشار اليه (فان فلوتن) متحدثا عن السيادة الفارسية في الدولة العباسية:" ومنذ قيام الدولة العباسية اصبح الخراسانيون من الفرس اشد الناس ولاء لذلك العرش الجديد، كذلك رفع الموالي المضطهدون ـ الذين كانوا سببا في سقوط الدولة الأموية ـ رؤوسهم، واسندت اليهم المهمة في قصر الخليفة وفي الجيش والمالية، كما اسندت اليهم إمارة الولايات الإسلامية حتى حسدهم العرب، وكانوا اقل شأنا منهم"(٨). وقد عبر احد شعراء بني تميم عن هذا الاستئثار من قبل الفرس بخيرات الدولة مقابل اقصاء العرب ومنعهم حقوقهم في تلك النعم قائلا:

أيا ربِّ ربَّ الناسِ والمنَّ والهُدى أمَا لي في هذا الأنامِ قسيمُ
أما تستحي منّي وقد قمتُ عارياً أُناجيكَ يا ربي وأنتَ كريمُ
أترزقُ أبناءَ العلوجِ وقد عَصوا وتتركُ قوماً من قُرومِ تميم(٩)

وكانت المرحلة التي شهدت صراعا شديدا على السلطة بين "الأمين والمأمون" والتي هي في حقيقتها صراعا عرقيا بين الفرس والعرب انتهى بمقتل الأمين من اكثر المراحل بأسا وشدة على المجتمع العباسي، وذلك بسبب توسع نفوذ الفرس بشكل اكبر مما كان عليه وتهميش دور العرب في إدارة مفاصل الدولة، حتى بلغت الجرأة بهم الى الفخر علنا بسيطرتهم على مقدرات الدولة فهذا " طاهر بن الحسين البرمكي وابنه عبدالله " يباهيان العرب علنا بتمكنهم من قتل الأمين يقول طاهر:

قتلت أميرَ المؤمنينَ وإنما بقيتُ عناءً بعده للخلائفِ
وقد بقيت في أمّ رأسي فتكةٌ فإما لرشدٍ او لرأي مخالفِ

بل ويذهب ابنه عبدالله الى ما هو ابعد من ذلك، ليرتفع بقومه الى الحد الذي يفضلهم به على بني العباس انفسهم قائلا:

أنا من تعرفن نسبهُ سلفي الغر البهاليلُ
وابي من لا كفاء له من يساوي مجده؟قولوا!
أبطن ،المخلوع كلكله وحواليه المغاويلُ
فثوى والترب مضجعهُ غال عنه ملكه غولُ[١٠]

٢- إن الحياة الاقتصادية في العصر العباسي الأول لم تكن سليمة كل السلامة، ولا مستقيمة كل الاستقامة، بل كانت مضطربة بعض الاضطراب، مختلة شيئا من الاختلال، بحيث لم تحقق الخير للناس على اختلاف طبقاتهم، ولم توفر لهم الحياة الكريمة على تباين منازلهم، وإنما حظي نفر قليل من الناس بتلك الحفاوة والرفاهية الاقتصادية وهم: الخلفاء، وابناء البيت العباسي، والوزراء والعمال، وكبار رجال الدولة، ومن كان يتصل بهم إذا ما علمنا ان مصدر هذا الاضطراب الاقتصادي لم يكن مرجعه قصور النظام المالي وفساده، وإنما كان عائدا الى الأخطاء التي ارتكبت في تطبيقه وتنفيذه، والى توزيعه في وجوه متعددة لا تتعلق بالمنفعة العامة وقد تمثل هذا الاختلال الاقتصادي في مظاهر عدة منها:العنف في جباية الخراج[١١]. فضلا عن خيانة العمال وارتشاؤهم، ومنها انفاق الاموال في سبل لا تخدم العامة من ابناء الشعب مثل: تجنيد الجيوش، للقضاء على المتمردين الثائرين، والاغداق على القادة وجنودهم، لكي يظلوا اوفياء لهم[١٢]. وقد ادى هذا التقصير في أداء الأدارتين السياسية والاقتصادية الى ارتفاع حدة السخط بين صفوف العامة من المهمشين، ولاسيما اولئك الذين اثقلتهم سياسة الدولة الاقتصادية في الجباية للخراج والضرائب، وهو ما بدت آثاره بشكل جلي من خلال الثورات والحملات التي كان يشنها بعض ولاة بني العباس، لجباية الخراج والضرائب من العامة، والتي ارتفعت الى الحد الذي اثقل كاهل الطبقات الفقيرة، فكان ذلك سببا في تمردهم وثورتهم على تلك الأوضاع بين الحين والآخر، وهو ما وصفه التوحيدي

بالقول: "ولما كانت اوائل الأمور على ما شرحت، وأوسطها على ما وصفت، كان من نتائجها هذه الفتن والمذاهب، والتعصب والافراط، وما تفاقم منها وزاد وعلا وتراقى، وضاقت الحيل عن تداركه وإصلاحه، وصارت العامة مع جهلها تجد قوة من خاصتها مع علمها.... واصبح طالب الحق حيران، ومحب السلامة مقصودا بكل لسان سنان، صار الناس احزابا في النحل والأديان"(١٣) . وقد افضى هذا الاضطراب في الاوضاع السياسية والاقتصادية للدولة العباسية الى انحسار المجتمع العباسي بين طبقتين الأولى: يمثلها الميسورين من الخاصة والأعيان والثانية:يمثلها الفقراء من المعدمين والمحرومين وما بين الطبقتين فئة ثالثة تتأرجح بي اليسر حينا وعسر الحال حينا آخر. ونتيجة لتلك الاسباب مجتمعة ظهرت فئة العيارين والشطار، وهي جماعة اتخذت من الكسب غير المشروع والمتمثل بالإغارة، والسرقة لأموال الميسورين واصحاب النفوذ تحديدا وسيلة لاسترداد حقوقهم المغبونة في اموال الدولة، التي انشغلت عنهم واهملت مطالبهم في العيش الكريم، بوصفه حقا مكتسبا كفله الدين الأسلامي عن طريق العديد من القنوات التي شقها، سبيلا لتوفير الحياة الكريمة لاولئك الأفراد، ملزما السلطة التنفيذية بضمانه، فهو حق معلوم لا يقتصر على عصر أو مكان بعينه. وعلى الرغم من أن نبل الغاية لا يبرر الوسيلة بالنسبة للسلوك المجتمعي للعيارين والشطار ومن قبلهم الصعاليك، إلا اننا لا نعدم وجود العديد من التوجهات الاخلاقية والدينية في كثير من المصادر التي ذكرت حوادثهم وأخبارهم، واظنها مفارقة تشف في جانب من جوانبها عن توجه ديني واخلاقي مضمر في نفوس هؤلاء إذا ما اخذنا في الحسبان طبيعة الحياة التي فرضت عليهم هذا السلوك المكتسب ـ إن جاز لنا التعبير

ـ غير الفطري أو الطبعي.

المبحث الثاني: ملامح المفارقة الدينية والاخلاقية في أدب العيارين والشطار

صاحب النشاط السياسي لفئة العيارين والشطار ولاسيما في الحقبة التي شهدت صراعا داميا بين الأمين واخيه المأمون نشاطا ادبيا واسعا، ومتنوعا في آن وهو نتاج امتلك مقومات الأبداع الأدبي سواء في ميدان الشعر ،أو النثر، فكان مادة ثرة لكل من حاول دراسة ادب هذه الحقبة من الحكم العباسي وتحديدا ادب هذه الفئة التي عبرت عن هموم عصرها بالسلاحين معا السيف واللسان. ولعل المتأمل في مضامين هذا الأدب الفكرية يلحظ وبشكل واضح امرين اثنين:

احدهما: إن هذا الأدب معني بفئة اجتماعية بعينها وهي فئة المهمشين والمعدمين الذين اجبروا على سلوك طريق الإغارة والسلب، لعوامل عدة سبق وأن اشرنا اليها لذا فقد كانت:" منبوذة طبقيا واجتماعيا من الفئات الاجتماعية الأعلى، فهي من هذه الناحية جماعات تعيش على هامش المجتمع"(١٤).

وثانيهما: يعود الى ما تضمنه ادب العيارين والشطار بشقيه الشعري والنثري من مفارقة تشف عن حرص معظم ابطال هذه الفئة على تمثل القيم الاخلاقية والدينية والاجتماعية في سلوكياتهم، ولاسيما تلك التي بدا فيها خروجهم عن القانون والعرف الاجتماعي، لذا فإنه ليس محض مصادفة أن يكون النمط البطولي المساعد، في جميع الملاحم والسير الشعبية العربية على سبيل المثال عيارا من العيارين، وغني عن القول: ان هذا النمط البطولي المساعد، هو احب شخصية الى قلب القاص الشعبي وجمهوره، ولأمر ما قالوا قديما: "اللص احسن حالا من الحاكم المرتشي، والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى".[١٥] وإذا ما حاولنا تفسير وجود مثل هذه المفارقة التي قد تبدو للوهلة الأولى مناقضة للسلوك المعلن لهذه الفئة والقائم على الإغارة والسلب نجد أنها وليدة هذا السلوك نفسه بعبارة ادق: إن هذا السلوك السلبي هو في ذاته المحفز الاساس لوجود تلك المفارقة الدينية والاخلاقية، فهم رافضون للواقع الذي نحى بهم نحو هذا التوجه المرفوض دينيا واجتماعيا، فكان الأدب الذي اختصوا به دونما فئة أخرى الملاذ الذي يعبرون من خلاله عن رفضهم لهذا التوجه العدائي وإن كان موجها لطبقة الاغنياء والمسيورين واصحاب النفوذ، ممن جاروا على حقوقهم الشرعية والوضعية وهو ما عبر عنه احد الشطار المعدمين المغمورين واصفا ضيق الحال متضرعا الى الله أن يرزقه ما يقيم به أوده، ويستر عليه جوعه قائلا:

يا ربُ إني سائلٌ كما تَرى مُشتّملٌ شُميلتي كما تَرى
وشيختي جالسةٌ فيما تَرى والبطنُ منّي جائعٌ كما تَرى

فما ترى يا ربَّنا فيما تَرى[١٦] ولعل القبول الاجتماعي الذي حضي به سلوك معظم ابطال ادب هذه الفئة ـ وإن كان خارج نطاق القانون ـ دليل على انهم لم يكونوا صعاليكا، او سراقا بالفطرة، او الطبع، إنما هو سلوك مكتسب، وما تحول بعضا منهم الى رموز اسطورية يردد المجتمع بطولاتها النبيلة في نصرة المظلوم ومعاقبة الظالم مرتقين الى: "مرتبة البطولة شبه الملحمية (القومية) على نحو ما نرى في سيرة اشطر الشطار: علي الزيبق إلا دليل على هذا التوجه الخير في ذواتهم[١٧]. ولم يكن وازع الاحساس بالمسؤولية الوطنية ازاء اي خطر يمكن أن تتعرض له ولاياتهم وامصارهم غائبا عن وجدان تلك الفئة، وهو ما شف عنه الدور الذي أدوه ايام الفتنة التي دارت رحاها بين الأمين والمأمون، إذ اضطربت الاوضاع على الناس: "ونقب اهل السجون، وخرجوا منها، وفتن الناس، وساءت حالهم، ووثب الشطار على اهل الصلاح"[١٨]. والمقصود باهل الصلاح هنا التجار والاثرياء وكبار القادة. فكانوا القوة الضاربة التي استعان بها الأمين في الدفاع عن بغداد بعد أن خذله اعوانه وولاته، عندما هاجم الطاهر بن الحسين بغداد :"وسقطت قيادات العرب، وزالت رياساتها، وذهبت مراتبها"[١٩]. إذ برزوا بوصفهم قوة استعانة بها السلطة لمواجهة خصومها في الدفاع عن

احقية الأمين بالخلافة، فكان بلاؤهم شديدا في ذلك على الرغم من جور ولاتهم على احقيتهم في ثروات الدولة وخيراتها إلا ان ولائهم وصدق مشاعرهم ازاء الرمزية التي يمثلها الأمين بوصفه رمزا لسيادة العرب على كل من يريد حكم بغداد من الفرس وسواهم كان العامل الأهم في نفوسهم وهو ما وصفه احدهم بالقول:

خـرِّجت هـذه الحروبُ رجـالاً لا لقـحـطـانِـهـا ولا لـنـزارِ
معشراً في جواشنِ الصوفِ يغدو ن الى الحربِ كالأسودِ الضواري
وعليهم مغافرُ الخوصِ تجزيـ هِـم عن البيضِ والتراسِ البـواري
ليس يدرون ما الفرارُ إذا الأبـ طالُ عاذوا مـن القنـا بالفـرارِ
واحـدٌ منهـم يشـدُّ علـى الـ فيـن عُـريـانٌ مالـهُ مـن إزارِ
ويقولُ الفتى إذا طُعِن الطعـ ـنـة خُذهـا من الفتى العيـارِ
كم شريفٍ قد اخملتهُ وكم قد رفعـت مـن مـقـامـرٍ طـرّارِ[٢٠]

وفي موضع آخر يصف احدهم اصرارهم على الثبات امام جيش طاهر قائلا:

لنا من طاهر يوم عظيم الشأن والخطب
أتاه كـل طـرار ولص كان ذا نقـب
وعريان على جنبيـه آثار من الضـرب[٢١]

ثم كانت واقعة بدرب الحجارة فنى فيها خلق من العراة أصحاب (رماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر) وثبت بعضهم أمام قواد المأمون، فهزموا أحدهم وأسروه فقال عمرو الوراق واصفا حسن بلائهم :

عريان ليس بذي قميص يغـدو على طلب القميص
يغدو على ذي جوشـن يعمي العيون من البصيص
في كفه طـرادة حمراء تلمع كالفصوص
حرصا على طلب القتا ل أشد من حرص الحريـص
سلس القيادة كأنمـا يغـدو على أكل الخبيص
ليثا مغيـرا لم يـزل رأسـا يعد من اللصـوص
أجـرى وأثبت مقدما في الحرب من اسد رهيص
يدنو على سنن الهوا ن وعيصة من شر عيص
ينجو إذا كان النجـا ء على أخف من القلـوص
ما للكمى إذا لمقـ تلـه تعرض من محيـص
كم من شجاع فـارس قد باع بالثمن الرخيـص
يدعو : ألا من يشترى رأس الكمى بكف شيـص.؟ ! [٢٢]

ومن بين العيارين والشطار الذين بانت آثار الوازعين الديني والاخلاقي في اشعارهم "**اسحق بن خلف المعروف بابن الطبيب البهراني**" الذي شأنه معاشرة الشطار والعيارين والتصيد بالكلاب وايثار اصحاب الطنابير، وقد حبس في جناية جناها فقال الشعر في السجن احتفى به الملوك ودونوه لما حمله من عظة ،وحسن لفظ ومنه قوله:

النحو يبسط من لسان الالكن والمرء تكرمه اذا لم يلحن

واذا طلبت من العلوم اجلها فأجلها عندي مقيم الألسن(٢٣)

وفي موضع آخر يوضح ان العوز وضيق ذات اليد هما من اجبراه على تكلف سلوك الاغارة والسلب وذلك بعد ان ذكر ابنة اخيه التي تكفل بها وسماها اميمة:

لولا اميمـــــة لم اجزع من العدم ولم اجلب في الليالي حندس الظلم

وازدني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يحفوها ذوو الرحم

أخشى فضاضة عم او جفاء أخ وكنت ابكي عليها من أذى الكلم(٢٤)

وهو من شدة حبه لأميمة ومودته لها يطالعنا وقد اجتمعت في نفسه مفارقة عجيبة تتمثل بحزنه على فقد أميمة من جهة بعد أن فارقته ملتحقة بالرفيق الأعلى، وفي ثنائه على الموت الذي ازاح عن كاهله مشقة إعالتها التي لم ير بدا لها من سلوك طريق السلب والشطارة، سبيلا لحفظ ماء وجهها وسد عوزها بعد ان أعيته السبل من جهة اخرى وهو ما وصفه قائلا:

أمست أميمة معمورا بها الرجم لقى صعيد عليها الترب مرتكم

ياشقة النفس ان النفس والهة حرى عليك ودمع العين منسجم

فالآن نمت فلا هم يؤرقنـــي يهدا الغيور اذا ما اودت الحـرم

للموت عندي اياد لست انكرها احيا سرورا وبي مما أتى ألـــم(٢٥)

وفي شأن اخر يوضح تنكر ذوي النفوذ والسلطة لمحاباته لهم وامتداحه لخصالهم مثل الحسن بن سهل الذي يئس من احسانه قائلا:

بابُ الأمير عراء ما به احد الا امرؤ واضح كفـا على ذقـنِ

قالت وقد املت ما كنت آمله هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمـنِ

كفيتك الناس لا تلقى أخا طلب بفيء دارك يستعدى على الزمــنِ

إن الرجــاء الــذي قــد آملـــــه وضــعته ورجاء الناسِ فــي كفــنِ

في الله منه وجدوى كفه خلف ليس السدى والندى في راحة الحسنِ(٢٦)

فهذه سيرة فتى من فتيان ذلك الزمان وهذا ما انطوت عليه لبابة اعتقاده التي كانت وسواها من معظم قصص العيارين والشطار انموذجا لتلك المفارقة العجيبة التي جمعت النقيضين في نفوسهم الحي والشر في آن. واذا ما حاولنا تتبع ادب العيارين والشطار في رحلة الكشف عما تضمنه من مفارقات تنتمي في توجهاتها الى الجانب الديني والاخلاقي نجد أن اكثر ما

يمثل هذا التوجه ادب الملاحم والسير الشعبية، فهو اكثر الانواع الادبية التي بان من خلالها العيارون والشطار ابطالا مدافعين عن الحقوق المسلوبة في ضوء المبادئ الخيرة التي يتحلون بها في مواجهة ارباب السلطة والنفوذ فضلا عن المتربصين بالدولة وسيادتها، بل وحتى مواجهة العيارين والشطار من ابناء جلدتهم الذين كانت بواعثهم عدوانية تفتقد الى الوازع الاخلاقي والديني على نحو ما نجده في **سيرة** "**حمزة العرب**" البطل الملحمي وعياره "**عمر**" الذي تربطه به علاقة اخوة ومصير فهو ابو العيارين الذي لا يترك فرصة ليحمل الدنانير الذهبية اليهم الا ويغتنمها مرجئا لنفسه متعة وجدانية يخلفها ايثاره لهم دونما استأثار لنفسه بشيء منها وهو متقن لفنون التنكر وابواب الشطارة، وهو في الحرب شديد الوطأة على الفرس الذين حاولوا اغتصاب بغداد واستباحتها، فهو بحسب وصف الراوي للسيرة: "رأس العرب، وفخرهم، ولولاه لما نجحوا ولا فازوا، وهو حاميتهم في الليل والنهار" [٢٧].

وهو لا يتونى عن الدفاع عن العقيدة الاسلامية اذا ما حاول الدخلاء والمتربصين بالاسلام ووجوده استباحتها مثل الروم الذين اعلنوا الحرب على العرب، فلم يجد بدا من التحالف مع الفرس ضدهم في وداد مؤقت معهم سعيا منه لاستغلال العداوة التي تجمع بين الطرفين من جهة والحصول على امدادات الحرب التي تضمن له النصر من الفرس امام الجبابرة العتاة البغاة الطغاة، ولاسيما اولئك الذين ادعوا الربوبية، وفرضوا انفسهم على شعوبهم، فكانوا يعبدونهم من دون الواحد القهار[٢٨]. ونظير هذا التوجه الاخلاقي الديني في سلوك عمر العيار كان توجه ابا محمد البطال بطل "سيرة الأميرة ذات الهمة" التي استوعبت شطار الثغور وعياريهم، فهو بحسب وصف راوي السيرة: "اشطر شطار الثغور الاسلامية، عربيا وعالميا، تاريخيا وشعبيا" [٢٩]. فكان واصحابه من الشطار والعيارين يخرجون لنصرة جند المرابطين على حماية الثغور من اعتداء الروم وكان "**البطال**" من اكثرهم اندفاعا وحماسة واستغلالا لبراعته في الاحتيال والسرقة وتدبير المكائد للفتك بالروم حتى قيل ان امهاتهم الروميات كُن يُخفن اولادهن ـ اذا بكوا ـ باسمه . [٣٠] وقد وظف حيله ومكائده في خدمة الجيوش الاسلامية، فكانت الحصون التي يعجز السيف عن فتحها تعجز امام حيله ومكائده، عن طريق خداعه للعسكر حتى إذا تم له ما اراد فتح باب الحصن على مصراعيه للمجاهدين بحيل لا تخلو من الطرافة والظرافة فاستحق بذلك لقب "عيار المسلمين". كما انه وظف خفته في السرقة ازاء سرقة ملك الروم نفسه، فكان ذلك من اهون الأمور عليه وايسرها- إذا ما علمنا ـ ان التوسل بالعيارة والشطارة والخداع لتحقيق النصر على الاعداء امر مباح في معسكرات الاسلام[٣١]. وإذا ما حاولنا استقراء هذه التوجهات الدينية والاخلاقية في سلوكيات العيارين والشطار فإننا لا نجد اصدق من وصف د. محمد رجب لذلك عندما اوضح ان البطل الملحمي المسلم في هذه السير التي حملت طابع المعارك والجهاد، حمل

الوجدان الشعبي على اضفاء الطابع الديني على ابطال تلك السير، فارتقى بهم الى مرتبة الولاية الصوفية الأمر الذي يشير الى ارتباط فتوة الثغور بالبعد الديني الصوفي تاريخيا[٣٢].

الهوامش :

(١) ينظر لسان العرب،ابن منظور،مادة عير.ينظر ايضا المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤.

(٢) ينظر م.ن،مادة شطر.

(٣) ينظر حكايات الشطار والعيارين،محمد رجب النجار، الشركة الدولية للطباعة،ط٢، ٢٠٠٣،ص:٧.

(٤) ينظر م.ن،ص:٧

(٥) موسوعة ادب المحتالين،د.عبد الهادي حرب،دار التكوين للتأيف والترجمة،دمشق، ،ص: ٤٣، ٢٠٠٨.

(٦) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي،وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية،قطر،ط٢، د.ت،ص:٣٠٨.يظر ايضا تاريخ الادب العربي العصر العباسي الثاني،شوقي ضيف،دار المعارف،مصر،ط٢، ١٩٧٣،ص:٩وما بعدها.

(٧) ينظر تاريخ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب الكاتب المعروف باليعقوبي،تحقيق عبد الامير مهنا،بيروت، ٢٠١٣ :١٧٠/٣.ينظر ايضا المهمشون في الادب العباسي،اطروحة دكتوراه ، نورس ابراهيم،كلية الآداب،بغداد،٢٠١٣، ص:٥٠.

(٨) السيادة العربية،فان فولتن، ترجمه عن الفرنسية ونقده،حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم،دار السعادة، ط١، ١٩٣٤،ص:٣٤.

(٩) المحاسن والمساوىء، ابراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف،مصر،١٩٩١، ص:٥٨٥.

(١٠) الفرج بعد الشدة، القاضي علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر،بيروت،١٩٧٨ :٣٤٢/١. ٣٤٣.ينظر ايضا المهمشون في الادب العباسي، نورس ابراهيم،ص:٥٢.ينظر ايضا ادب النكبة في التراث العربي، محمد حمدان، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠٤،ص:٥٩.

(١١) ينظر في هذا الشأن الاخبار الطوال،ص:٣٨٤،والاخبار الموفقيات،ص:١٤٢.وعيون الاخبار،ابن قتيبة ، تحقيق منذر محمد سعيد، ،بيروت، ط١،٢٠٠٨ :٣٣٣/٢،والعقد الفريد،ابن عبد ربه، تحقيق مفيد قميحة،دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣ :١٥٩/٣.

(١٢) ينظر الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول،حسين عطوان،ص:١٢.

(١٣) الامتاع والمؤانسة،ابو حيان التوحيدي، تحقيق هيثم خليفة، المكتبة العصرية، بيروت،ط١، ٢٠٠٤ :٧٦/٢. ٧٧.

(١٤) المحاسن والمساوىء، للبيهقي،ص:٥٨٥.

(١٥) حكايات الشطار والعيارين،محمد رجب،ص:٨.٧ .

(١٦) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء، الراغب الاصفهاني، تحقيق د.عمر الطباع،دار الارقم،١٤٢٠هـ : ١٩٣/٣. ينظر ايضا حكايات الشطار والعيارين،محمد رجب،ص:١٣.

(١٧) حكايات الشطار والعياريين،محمد رجب،ص:١٣.

(١٨) الكامل في التاريخ، ابن الاثير، تحقيق ابو الفداء عبدالله القاضي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٩٨٧ :٢١٣/٨:

(١٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر،الامام اب الحسن بن علي المسعودي، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي،المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥ :٢٩٢/٨:.

(٢٠) البطل في الملاحم الشعبية العربية قضاياه وملامحه الفنية،اطروحة دكتوراه،محمد رجب النجار،كلية الاداب،جامعة القاهرة، ١٩٧٦ :٤٨٠/١: وما بعدها.

(٢١) سيرة حمزة البهلوان،غريب محمد غريب،رسالة ماجستير،ص:١٧٢ ومابعدها

(٢٢) فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي،تحقيق احسان عباس،دار صادر،بيروت، ط١، ١٩٧٣ :١٧/١:.

(٢٣) م.ن:١٧/١.

(٢٤) الكامل في التاريخ،ابن الاثير:٢٥١/٣.

(٢٥) م.ن:٢١/٣.ينظر ايضا كتاب الفتوة ،لابن معمار،حققه ونشره د.مصطفى جواد وآخرون،مطبعة شفيق، بغداد ، ١٩٦٠،ص:٢٥.٢٦.

(٢٦) البطل في الملاحم العربية قضاياه وملامحه الفنية،محمد رجب:٢٧٢/٣ومابعدها.

(٢٧) سيرة حمزة البهلوان،غريب محمد غريب،رسالة ماجستير،ص:١٧٢ ومابعدها

(٢٨) سيرة الاميرة ذات الهمة دراسة مقارنة،نبيلة السيد،دار الكتاب العربي،القاهرة،ص:١٣٤. ١٣٧.

(٢٩) تاريخ الطبري:٨٨٦/١١،ينظر ايضا مروج الذهب،للمسعودي:٤٠٦/٣. ينظر سيرة الاميرة ذات الهمة، نبيلة السيد،ص:١٣٧.

(٣٠) ينظر سيرة الاميرة ذات الهمة،ص:١٣٧.

(٣١) ينظر م.ن،ص:١٣٧.

(٣٢) ينظر حكايات العيارين والشطار،محمد رجب،ص:٢٩٨.

اولا: المصادر والمراجع

١) الاخبار الطوال،ابو حنيفة الدينوري،تحقيق عبد المنعم عامر، منشورات الشريف الرضي،١٩٥٩ .

٢) الاخبار الموفقيات ،الزبير بن بكار،تحقيق سامي مكي العاني،عالم الكتب،ط٢، ١٩٩٦.

٣) ادب النكبة في التراث العربي،محمد حمدان،اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠٤.

٤) الامتاع والمؤانسة،ابو حيان التوحيدي، تحقيق هيثم خليفة، المكتبة العصرية، بيروت،ط١، ٢٠٠٤

٥) الكامل في التاريخ، ابن الاثير، تحقيق ابو الفداء عبدالله القاضي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٩٨٧ .

٦) تاريخ الادب العربي العصر العباسي الثاني،شوقي ضيف،دار المعارف،مصر،ط٢، ١٩٧٣

٧) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي،وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية،قطر،ط٢، د.ت .

٨) تاريخ الرسل والملوك، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم،دار المعارف،مصر،ط٢، د.ت

٩) تاريخ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب الكاتب المعروف باليعقوبي، تح: عبد الامير مهنا، بيروت، ٢٠١٣ .

١٠) حكايات الشطار والعيارين،د.محمد رجب النجار،الهيئة العامة لقصور الثقافة،ط٢ ،٢٠٠٣.

١١) السيادة العربية،فان فولتن، ترجمه عن الفرنسية ونقده،حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم،دار السعادة، ط١، ١٩٣٤

١٢) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول،حسين عطوان،دار الجيل،بيروت ،ط١، ١٩٧٢.

١٣) سيرة الاميرة ذات الهمة،دراسة مقارنة،نبيلة السيد،دار الكاتب العربي،القاهرة،د.ت.

١٤) العقد الفريد،ابن عبد ربه، تحقيق مفيد قميحة،دار الكتب العلمية، ط١،، ١٩٨٣ .

١٥) عيون الاخبار،ابن قتيبة ، تحقيق منذر محمد سعيد، ،بيروت، ط١،٢٠٠٨ .

١٦) الفرج بعد الشدة،القاضي ابو علي المحسن بن علي التنوخي،تحقيق عبود الشالجي،دار صادر، بيروت ،١٩٧٨.

١٧) فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي،تحقيق احسان عباس،دار صادر،بيروت، ط١، ١٩٧

١٨) كتاب الفتوة ،لابن معمار،حققه ونشره د.مصطفى جواد وآخرون،مطبعة شفيق، بغداد ، ١٩٦٠.

١٩) لسان العرب،ابن منظور،مادة عير.ينظر ايضا المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية،القاهرة،ط٤، ٢٠٠٤.

٢٠) المحاسن والمساوىء، ابراهيم بن محمد البيهقي،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم،دار المعارف،مصر،١٩٩١.

٢١) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء، الراغب الاصفهاني، تحقيق د.عمر الطباع،دار الارقم،١٤٢٠هـ .

٢٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الامام اب الحسن بن علي المسعودي، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥ .

٢٣) موسوعة ادب المحتالين، د.عبد الهادي حرب، دار التكوين للتأيف والترجمة،دمشق،٢٠٠٨

ثانيا: الرسائل والاطاريح الجامعية

١) البطل في الملاحم الشعبية العربية قضاياه وملامحه الفنية، محمد رجب، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة،١٩٧٦.

٢) سيرة حمزة البهلوان، غريب محمد غريب، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة،١٩٦٩

٣) المهمشون في الادب العباسي، اطروحة دكتوراه ، نورس ابراهيم، كلية الآداب، جامعة بغداد،٢٠١٣.

Moral and religious paranoia in the literature of Caliber and Algarve The Abbasid period is a model

Dr. Esraa Tarek Kamel
Faculty of Arts / Department of Arabic Language

Abstract

Our Arab literary heritage is attractive and Hausa Linfak tempts scholars and researchers in ancient and recent research into its hidden places and worlds, which in quite a few of them involve the paradoxes and antagonisms of this heritage in its various literary genres, which were incorporated under the poetry and prose .

Perhaps we are wrong if we say that the preoccupation of most literary and monetary studies, especially the old ones research and extrapolation of literary productions central or official that we may express such as those that investigate the literary and monetary phenomena in this poet or that or that community of poets and other traditional topics that worked These scholars are searching for a lot of literary and intellectual currents that do not complement our Arab heritage without looking at their sources and even trying to eliminate them in some cases, despite the fact that they included creative means that contributed to enriching our literary and monetary heritage in a different way. Day's through .

The phenomenon of the spread of caliber and al-Shatter as an outlaw and state authority was one of the most prominent phenomena that occupied our ancient Arab societies, especially the Abbasid society, which caused the neglect of power by its impoverished and poor groups in their behavior. The political activity of this social group was accompanied by a wide variety of literary activities, which included many paradoxes and contradictions, including the religious and moral paradox, which we have noticed in their heroic and folkloric stories and stories, as well as their poems which revealed in many of them the emotional side of this group, Religious and moral, who have defended their existence and even rooted in their behavior and if they are moving within the framework of robbery and raid on the rich and the wealthy and influential people specifically, being one of the most important factors marginalization and exclusion Despite the fact that the purpose is not to justify the means, the literary reality of the caliphs and al-Shatter clearly refers to a social and religious role to be played by heroes who belong to the path and stories of this popular trend. They influenced the society positively by establishing the religious and moral grounds in their hearts; the negative is a paradox in the reader's mind about how these two extremes combine the belief in religion and morals on the one hand and the behavior that negates this belief on the other. This is what we tried to exaggerate in his clergy and to prove or deny this kind of irony in the literature of calves and fables .